



أعرف قوماً لو كانت مفاتيح أبواب الجنة في أيديهم لأغلقوها كلها ولم يتركوا سوى كوة صغيرة يدخل منها الناس إلى الجنة حبّوا، منهم أولئك الذين يتبعقون المجاهدين الذين قدموا النفس والنفيس واحتملوا في صراعهم مع العدو المجرم ما تكاد تعجز عن حمل مثله الجبال.

يقولون: "في أي شيء تقاتلون؟"

فإن قالوا: "نقاتل من أجل الحرية والكرامة ودفع الظلم عن المظلومين" قالوا لهم: "هذه النية غير صالحة وإن متم مبيته جاهلية، لأن من قاتل لتحكيم شرع الله وإقامة دولة الإسلام فهو فقط الذي يقاتل في سبيل الله".
إن القتال من أجل إسقاط الطواغيت وتحكيم شرع الله في الحياة من أجل وأعظم أهداف الجهاد، وهو أصل القتال في سبيل الله بلا ريب.

ولكن هل يصح القول إن القتال دفعاً للظلم ودفعاً عن الحرية والكرامة قتال في غير سبيل الله؟ وما القتال في سبيل الله؟
قال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله}. قال الطبرى في تفسيره: "في دينه الذي هدكم إلهي".
وقال في قوله تعالى: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله}: "في طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده".
وفي قوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم}: "سبيله هو طريقه الذي أوضحه دينه الذي شرعه لعباده؛ يقول لهم: قاتلوا في طاعتي وعلى ما شرعت لكم من ديني".

فمن قاتل في طاعة الله ودينه فهو في سبيل الله، وحيثما تحقق العدل وتتوفرت الحرية والكرامة للناس فثم الأرض التي يُدعى فيها إلى الله وترتفع فيها كلمة الله.

وفي الحديث: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"، بإطلاق.
وكلمة الله تعلو حيث يتحقق مراد الله من خلقه، وقد حرم الله الظلم على نفسه وعلى خلقه، وخلق الناس كراماً ويريد لهم أن يعيشوا كراماً، وخلقهم أحراراً ويريد لهم أن يعيشوا عيشة الأحرار.

ثم إن ربنا -عز وبارك- قرن القتال في سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان بالقتال في سبيله فقال: {ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين؟}. قال أبو حيان في البحر: قال ابن عطية: "والآية تتناول المؤمنين والأسرى إلى يوم القيمة".

وقد أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- المسلم بالدفاع عن نفسه وحقه وعدم مقابلة عدوan المعتمدي بالاستسلام. وسمى من مات في سبيل حقه شهيداً، فهل يكون شهيداً من مات ميتة جاهلية؟

في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري (الذى أخرجه مسلم والنسائي وأحمد بالفاظ متقاربة) أن رجلاً جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريدأخذ مالى؟ قال: فلا تعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلتني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلتة؟ قال: هو في النار.

وعنه -صلى الله عليه وسلم-: "من قُتل دون ماله فهو شهيد"، وهو حديث مشهور أخرجه الشیخان وأصحاب السنن عن جمـع من الصحابة، عبد الله بن عمرو وأبـي هريرة وجابر بن عبد الله وسعد بن أبي وقاص وأنس بن مالـك وعبد الله بن الزبـير وعبد الله بن مسعود وبريدة بن الحصـيب الأـسلمي وسعـيد بن زـيد وغـيرـهم.

وقد ساوى النبي عليه الصلاة والسلام بين القتال والموت دفاعاً عن الدين والقتال والموت دفاعاً عن النفس والعرض والمال، وسمى من يموت في ذلك كله شهيداً. أخرج الترمذى وأبـو داود وأحمد (وصحـحـه الأـلبـانـيـ فيـ صـحـحـ الجـامـعـ وـصـحـحـ التـرـغـيـبـ) عن سـعـيدـ بنـ زـيدـ: "من قـُـتـلـ دونـ مـالـهـ فـهـوـ شـهـيدـ،ـ وـمـنـ قـُـتـلـ دونـ دـيـنـهـ فـهـوـ شـهـيدـ،ـ وـمـنـ قـُـتـلـ دونـ دـمـهـ فـهـوـ شـهـيدـ،ـ وـمـنـ قـُـتـلـ دونـ أـهـلـهـ فـهـوـ شـهـيدـ".ـ وـفـيـ لـفـظـ النـسـائـيـ:ـ "منـ قـاتـلـ دونـ مـالـهـ فـقـتـلـ فـهـوـ شـهـيدـ،ـ وـمـنـ قـاتـلـ دونـ دـمـهـ فـهـوـ شـهـيدـ،ـ وـمـنـ قـاتـلـ دونـ أـهـلـهـ فـهـوـ شـهـيدـ".ـ وـهـوـ أـصـرـحـ فـيـ الـقـتـالـ دـوـنـ النـفـسـ وـالـعـرـضـ وـالـمـالـ،ـ وـالـحـكـمـ بـالـشـهـادـةـ لـمـنـ مـاتـ فـيـ سـبـيلـ ذـلـكـ كـلـهـ.

وإنـاـ لـنـجـدـ خـلـاصـةـ الـمـسـأـلـةـ فـيـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ الـجـامـعـ الـذـيـ روـاهـ عـبـدـ اللهـ بنـ عـبـاسـ وـسـوـيدـ بنـ مـقـرـنـ وـصـحـحـهـ الأـلبـانـيـ فـيـ صـحـحـ الجـامـعـ وـصـحـحـ النـسـائـيـ:ـ "منـ قـُـتـلـ دونـ مـظـلـمـتـهـ فـهـوـ شـهـيدـ"،ـ هـكـذـاـ بـإـطـلـاقـ،ـ مـهـمـاـ تـكـنـ تـلـكـ الـمـظـلـمـةـ.

وتـأـمـلـواـ أـيـضـاـ حـدـيـثـ أـبـيـ سـالـلـةـ الـأـسـلـمـيـ:ـ "سـتـكـونـ عـلـيـكـ أـئـمـةـ يـمـلـكـونـ أـرـزـاقـكـ،ـ يـحـدـثـونـكـ فـيـكـنـبـونـكـ،ـ وـيـعـمـلـونـ فـيـسـيـئـونـ الـعـلـمـ،ـ لـاـ يـرـضـونـ مـنـكـ حـتـىـ تـحـسـنـواـ قـبـيـحـهـمـ وـتـصـدـقـواـ كـنـبـهـمـ،ـ فـأـعـطـوـهـمـ الـحـقـ مـاـ رـضـواـ بـهـ،ـ فـإـذـاـ تـجـاـزوـزـواـ فـمـنـ قـُـتـلـ عـلـىـ ذـلـكـ فـهـوـ شـهـيدـ".ـ أـخـرـجـهـ الـهـيـثـمـيـ فـيـ مـجـمـعـ الـزـوـائـدـ وـالـطـبـرـانـيـ بـإـسـنـادـ حـسـنـ مـرـفـوـعـاـ،ـ وـأـخـرـجـهـ الـدـيـلـمـيـ بـلـفـظـ:ـ "فـقـاتـلـوـهـمـ،ـ فـمـنـ قـُـتـلـ عـلـىـ ذـلـكـ فـهـوـ شـهـيدـ".ـ وـضـعـفـهـ الـأـلبـانـيـ فـيـ ضـعـفـ الـجـامـعـ.

ويشهد له حديث أم سلمة الذي أخرجه الطبراني في معجمه الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن وابن حبان وابن خزيمة في صحيحهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: عن أم سلمة أن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - بينما هو يوماً قائل في بيتها وعنده رجل من أصحابه يتحدثون، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، كم صدقة كذا وكذا من التمر؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: كذا وكذا. قال الرجل: فإن فلاناً تعدى عليَّ فأخذ مني كذا وكذا من التمر، فزاداد ساعاً. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فكيف إذا سعى عليكم مَنْ يتعدى عليكم أشدَّ من هذا التعدي؟ فخاض القوم وبهربم الحديث، حتى قال رجل منهم: كيف يا رسول الله إذا كان رجلٌ غائبٌ عنك في إبله وماشيه وزرعه فأدَّى زكاة ماله، فتعدى عليه الحق، فكيف يصنع وهو غائب عنك؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: مَنْ أدى زكاة ماله طَيِّبَ النفس بها يربد بها وجهه والدار الآخرة، فلم يُغَيِّبْ شيئاً من ماله، فتعدى عليه الحق، فأخذ سلاحاً فقاتل فُتُلَّ فهو شهيد. الحق في الحديث هو عامل السلطان على الزكاة. فهذا الحديث العجيب يطلب مَنْ ظلمه عاملُ الصدقات أن يدافع عن حقه، ويسمح له بأن يقاتل ظالمه في سبيل رد الظلم، فإن مات دونه كان موتة شهادة.

* * *

الخلاصة:

من صَحَّ إسلامه وصلحت نيته ولم يقاتل دفاعاً عن باطل ولا من أجل دنيا أو منفعة شخصية فهو في سبيل الله إن شاء الله، وإنَّ من أفضَّل أبوابِ الجهاد نصرةَ المستضعفين والدفاعَ عن العرضِ والمالِ والنفسِ ودفعَ الظلمِ وقتلَ الظالمين، فمن نصرهم ودفعَ عنهم ودفعَ ظالمهم بالسلاح فهو مجاهد بالسلاح، ومن أعاذه وأمدَّه بالمال فهو مجاهد بالمال، ومن سعى على مساكينهم وأيتاهم بالإغاثة أو عالج جراحهم وداوى مرضاهم فهو مجاهد بالجهد والعمل، ومن قُتلَ في شيءٍ من ذلك كله فهو من الشهداء بإذن الله رب العالمين.

الزلزال السوري

المصادر: